بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسّلامُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعين .. أمّا بعد:

فهذه كلماتٌ في ضوابطِ تدبّرِ القرآنِ، تعينُ على **فهمِ** هذا المقصدِ من مقاصدِ إنزالِ القرآنِ الكريمِ، و**حُسنِ القيامِ به** كما أمرَ الله تعالى، و**نيلِ ثمراتِه** التي وعدَها اللهُ من قامَ به على ما يُحبّ.

كما أنَّ في إحكامِ هذه الضوابطِ –بإذنِ الله– **ما يَقي من مزالقِ بعضِ المتدبّرين** في الفهمِ أو التَّطبيقِ، فإنَّ العنايةَ بتدبّرِ القرآنِ، والقيامَ به كيفما اتَّفقَ، لا تكفي في إصابةِ الصَّوابِ، ونيلِ الهدايةِ المَوعودِ بهما من تدبرَ القرآنَ؛ لأنَّ ذلك موقوفٌ على طريقةٍ بيَّنها القرآنُ، وفصّلَها العلماءُ بالبيانِ، وذلك ما أرجو بيانَه في هذه الورقاتِ بعنوان:

(أوَّلُ تَدبُّر)

وقد اختَرتُ لها هذا الاسمَ؛ لأنّ **أوَّلَ تَدبُّرٍ بعدها جديدٌ عن أيِّ تدبرٍ دونَها**، ويكادُ يكونُ شيئاً آخرَ عمّا يعهدُه من لم يتعرّف هذه المعالمَ.

وضممتُ إليها **شواهدَ وتطبيقاتٍ** تتبيّنُ بها تلك المعالمُ بجلاء.

أسألُ الله هدايتَه وتوفيقَه، والسَّدادَ والقبولَ، وصلى الله على نبيّنا محمدٍ أوّلاً وآخِراً، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

مدخلٌ في قاعدةِ فهمِ الضَّوابطِ:

التَّدبّرُ طريقةٌ لا نتيجة.

هذه القاعدةُ أصلٌ مهمٌّ لفهمِ (التَّدبُّر) وبيانِ حقيقتِه؛ فالدَّلالةُ اللُّغويَّةُ لهذه اللَّفظةِ، وحديثُ العُلماءِ عنها، وتطبيقاتُهم لها = كلُّها تدلُّ على أنَّ **التَّدبرَ طريقةٌ توصلُ لغايةٍ.**

فالتدبُّرُ في اللغةِ مأخوذٌ من النّظرِ في أعقابِ الأمورِ، ومدارُه على: التّرسُّلِ والفكرِ بأناةٍ(١). قال المُثقِّبُ العَبديّ(٢):

إذا ما تدبّرتَ الأمورَ تبيّنَت ... عياناً صحيحاتُ الأمورِ وعُورُها

وقال عروةُ بن الورد(٣):

فلا والله لو مُلِّكتُ أمري ... ومَن لي بالتَّدبُّرِ في الأمورِ
إذاً لَعصَيْتُهم في حُبِّ سلمى ... على ما كانَ مِن حسكِ الصُّدورِ

ويؤكِّدُ ذلك المعنى ما ذكرَه أهلُ اللغةِ في مقابلِ التَّدبّرِ من الألفاظِ؛ كالارتجالِ والفَلتةِ والفجأةِ والتَّقحّمِ والعَسفِ، ونحوِها(٤)، ممّا يجمعُها التعجّلُ وعدمُ الأناةِ والفِكرِ.

ويزيدُه تأكيداً أيضاً دلالةُ صيغةِ (التَّدبُّر): التَّفعّل. فقد ذكرَ أهلُ اللغةِ أنَّها تتضمّنُ معنى: «التَّكثيرِ والتّوكيدِ»(٥)، وذلك هو معنى التفكّرِ وتكرارِ النَّظرِ في التّدبّر.

كما أنَّ كلامَ العلماءِ عن (التَّدبُّر) واستعمالاتِهم له يؤكِّدُ كونَه طريقةً متَّبعةً لتحقيقِ المعاني وفهمِها(١)؛ فترى في كلامِهم استعمالَ التدبّرِ لتبيّن المعاني في **التَّفسيرِ**، كقولِ بعضِهم: تدبّرتُ الآيةَ فتبيّنَ لي أنَّ معناها كذا وكذا.

---

(١) ينظر: لسان العرب ٤/٢٧٣،

(٢) ديوانه (ص:٢٧٢).

(٣) الأغاني ٣/٢٩.

(٤) ينظر: غريب الحديث، للحربي ٢/٤٢٣، والصَّحاح ١/٢٦٠، وتاج العروس ٢٤/١٦٠.

(٥) اللباب في علل البناء والإعراب ٢/٢٧١. وينظر: مفتاح دار السعادة ١/١٨٣.

ويردُ كذلك في بابِ **الاستنباطِ**، نحوَ قولِهم: تدبّرتُ الآيةَ فاستنبطتُ منها كذا وكذا.

لكنّك لا ترى في كلامِهم: تدبّرتُ الآيةَ فتدبّرَ لي منها كذا وكذا**!**

وذلك أنَّ (التَّدبُّر) طريقةٌ تتحصّلُ بها المعاني والأحكام، وليس نتيجةً لغيرِه.

فإذا تبيّنَ لك ذلك، عرفتَ سببَ **قلّةَ ورودِ هذه العبارةِ في كلامِ السلفِ**، مع الكثرةِ الكاثرةِ ممّا أثرَ عنهم في بابِ تفهّمِ معاني القرآنِ الكريمِ والعملِ بها؛ وذلك أنَّ علومَ السَّلفِ متوجِّهةٌ إلى الغاياتِ والحقائقِ، وليس من عادتِهم تفصيلُ الطّرائق والأساليبَ؛ والتي منها التَّدبُّر، قالَ النَّحّاسُ(ت:٣٣٨) بعد ذِكر بعضِ أقوالِ السَّلفِ في الحروفِ المُقَطَّعةِ أوائلَ السُّوَرِ: «ولم يَشرَحوا ذلك بأكثرَ مِن هذا؛ لأنَّه ليس مِن مذاهبِ الأوائلِ، وإنَّما يأتي الكلامُ عنهم مُجمَلاً، ثم يتأوَّلُه أهلُ النَّظرِ على ما يوجِبُه المعنى»[٢].

فإذا كانَ التَّدبّرُ طريقةً .. فما معالِمُها؟

وكيف يكون؟

هذا ما تبيّنُه الضوابطُ الآتيةُ بإذنِ الله.

---

(١) ينظر: غريب الحديث، لابن قتيبة ٦٨٣/٣، وجامع البيان ٢٠٨/٩، وتهذيب اللغة ١٧٦/٥، والتفسير البسيط ٣٥٩/٥، ٤٦٥/٢٠، والمحرر الوجيز ٣٦٨/٢، ٤٣٤/٥، والفتاوى الكبرى ٢٤٧/٣.

(٢) معاني القرآن ٧٧/١. وينظر: التفسير البسيط ٤١٤/١، وتفسير آياتٍ أشكلَت ١٤٨/١.

أوَّلاً: التهيئةُ والتخليةُ (قبل التَّدبّر):

وذلك شأنُ كلِّ قضيةٍ جليلةِ القدرِ، عظيمةِ الأثرِ؛ تتهيّأُ لتلقّيها النَّفوسُ، وتتجرَّدُ لفهمِها العقولُ.

وفي تدبُّرِ كلامِ الله تعالى: القرآنِ الكريمِ، يكونُ ذلك ألزمُ وأوجبُ؛ فإنَّ ثمرةَ التَّدبّرِ: من تبيّنِ فوائدِ معاني القرآنِ وأحكامِه، وركونِ النَّفسِ إلى حقائِقِها = لا ينالُها قلبٌ مُعرِضٌ، أو عقلٌ جاحدٌ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون:٦٨]؛ فشَرطا حصولِ التَّدبّرِ ونيلِ هداياتِه **مِن كلِّ إنسانٍ** هما:

١: **تجرُّدُ العقلِ لمعرفةِ الحقِّ**. وهذا يُزيلُ الكِبْرَ والجُحودَ.

٢: **تهيّؤُ القلبِ لقبولِه**. وهذا يُزيلُ الغفلةَ والإعراضَ.

فبحصولِ هاتَين الصِّفتَين في النَّفسِ، وخلوّها من أضدادِهما = تهتدي بالتّدبّرِ إلى حقائق معاني القرآنِ وأحكامِه، بيقينٍ تركنُ إليه، وتطمئنُّ به.

وهاذان الشَّرطان دلَّ عليهما قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص:٢٩]، فـ(أولوا الألبابِ) هم أصحابُ العقولِ المُتجرِّدةِ لمعرفةِ الحقِّ، و(المُتذكّرون) هم من قبلَت قلوبُهم ذلك الحقَّ.

ويزيدُ المؤمنُ على ذلك صِفاتٍ ينالُ بها ما لا يُحصى من فوائدِ معاني القرآنِ وأحكامِه، وحقائقِه وهداياتِه، وهي:

٣: **تعظيمُ القرآنِ**؛ فإنَّ الإيمانَ بأنّ القرآنَ كلامُ الله تعالى، واستحضارَ عظمةَ المُتكلِّمِ به سبحانَه، وما وصفَه الله به من جليلِ الصِّفاتِ والمعاني = له أعظمُ الأثرِ في نَيلِ هداياتِ القرآنِ، وتكشُّفِ معانيه لتاليه.

٤: **الافتقارُ لهدايتِه**، واستشعارَ الحاجةِ لفهمِه، واستخراجِ معانيه وهداياتِه، وأنَّ ذلك سبيلُ صلاحِ الدّينِ وإقامةِ الدّنيا؛ فذلك من أجلِّ ما يحملُ النَّفسَ على تثويرِ القرآنِ، واستيفاءِ ما فيه من المعاني.

٥: **الحبُّ الصّادقُ للقرآنِ، والشّوقُ الدّائِمُ لآياتِه**؛ فبه تتلذّذُ النَّفسُ بما تقرأُ، وتتنعّمُ بما تَفهمُ، وتدومُ الصِّلةُ بالقرآنِ ولا تنقطعْ، فتتغازرُ المعاني والفوائدُ، ويتبعُ بعضُها بعضاً.

فإذا **تحلَّت** النَّفسُ بهذه الصِّفاتِ، **وتخلَّت** عن أضدادِها، فُتِحَ لها بابُ التَّدبّرِ، وتأهَّلَت له، قالَ الزَّمخشري(ت:٥٣٨): «يوفّق الله لإصابةِ الحقِّ من نظرَ وتدبَّرَ بعينِ عقلِه، والإنصافِ من نفسِه، ولم يَذهبْ عن الجادَّةِ الموصِلةِ إليه يميناً وشمالاً، ومن لم يتدبَّرْ فهو كالأعمى الذي سواءٌ عليه جُنحُ الليلِ الدّامسِ، وضَحوَةُ النّهارِ الشّامسِ»[1]، وقالَ ابنُ تيمية(ت:٧٢٨): «في تدبُّرِ القرآنِ وتفهُّمِه من مَزيدِ العلمِ والإيمانِ ما لا يُحيطُ به بَيانٌ»[2].

ثانياً: تصحيحُ المقاصدِ (قبل التَّدبّر):

تتعدَّدُ مقاصدُ النّاسِ من قراءةِ القرآنِ وسماعِه؛ كالقَصدِ إلى الحفظِ، ونيلِ الأجرِ، ومعرفةِ المعنى، والتطرُّبِ بالصوتِ الحسنِ ..، وهذه المقاصدُ ونحوُها **لا تفتقرُ إلى التَّدبّرِ في تحصيلِها**، وإن كانَ قد يُحتاجُ إليه أحياناً في تحديدِ المُرادِ من المعاني في التَّفسيرِ عند الاختلافِ.

---

(١) الكشاف ٣/٢٤٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٨١.

أمّا **بناءُ المفاهيمِ القرآنيَّةِ، وترسيخُ اليقينِ بها**، فلا سبيلَ إليه إلا بالتَّدبّرِ؛ بل ما شُرِعَ التَّدبّرُ إلا له، ودلائلُ ذلك ظاهرةٌ في اللغةِ والشَّرعِ؛ ففي اللغةِ علَّقَ ابنُ سيدَه(ت:٤٥٨) على مجيءِ الظَّنِّ بمعنى اليقينِ، فقالَ: «الظَّنُّ شكٌّ ويَقينٌ، إلا أنَّه ليس بيَقينِ عِيانٍ، إنَّما هو يَقينُ تدبُّرٍ، فأمّا يَقينُ العِيانِ فَلا يُقالُ فيهِ إِلا عَلِمَ»[1]، فالظَّنُّ لا يرتقي إلى معنى اليقينِ إلا بالتَّدبُّر.

وفي آياتِ التَّدبّرِ الواردةِ في القرآنِ الدَّلالَةُ الظّاهرةُ على تلك المقاصدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢]، فلو تدبّروا القرآنَ لوجَدوا اتّفاقَه واستقامتَه بلا اختلاف، ولزالَ عنهم الشَّكُّ في مصدرِه وأخبارِه وأحكامِه، ولَعلِموا أنَّه من عند الله يقيناً.

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون: ٦٨]، فلو تدبّروا القرآنَ لعَلِموا أنَّه الحقُّ الذي جاءَ آبائَهم، أو: لعَلِموا أنَّه الحقُّ وإن لم يأتِ آبائَهم[2]. فعلى كلا المَعنيَين لو تدبّروا لعلِموا الحقّ.

وقد بيَّنَ الله أنَّ الظَّنونَ هي مُنتهى علمِ من يقرأُ بلا تدبُّرٍ، فقالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة:٧٨]، فغايةُ علمِ مَن لا يتدبَّرُ = ظنونٌ.

فيتحصّلُ من الآياتِ أنَّ **من تدبَّرَ علمَ وتيقّنْ**، ولذا يقولُ ابنُ تيمية(ت:٧٢٨) : «وأمّا كيف يحصلُ اليقينُ؟ فبثلاثةِ أشياءَ؛ أوَّلُها: تدبُّرُ القرآنِ. والثّاني: تدبُّرُ الآياتِ التي

(١) المحكم والمحيط الأعظم ١٠/٨.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٧/٨٧.

يُحدِثُها الله في الأنفسِ والآفاقِ؛ التي تُبيّنُ أنَّه حقٌّ. والثّالثُ: العملُ بموجبِ العلمِ»[1]، وقالَ أيضاً: «ومن تدبَّرَ القرآنَ طالبًا للهدى منه تبيَّنَ له طريقَ الحقِّ»[2].

وهذه المقاصدُ الكبرى للتّدبّرِ تغيبُ اليومَ عن كثيرٍ من المُتدبّرين؛ فنرى معانٍ تدبُّريّةٍ ضعيفةً في معناها وفائدتِها، أو بعيدةَ الصِّلةِ بالآيةِ، أو تُخالفُ معانٍ شرعيّةٍ ثابتةٍ في القرآنِ أو السُّنَّةِ، ونحوِ ذلك ممّا هو أبعدُ ما يكونُ عن تحقيقِ اليقينِ بما في القرآنِ الكريمِ من الحقِّ البيّنِ الواضِح.

ثالثاً: تصحيحُ الوسائلَ (قبل التَّدبّر):

نحنُ مع القرآنِ إمّا في سماعٍ أو قراءةٍ، فاتِّصالُنا به إمّا أن يكونَ بالسَّمعِ أو بالبصرِ، فهل كلُّ سماعٍ يحصلُ به التَّدبّر؟ وهل أيَّ قراءةٍ يتحقَّقُ بها التَّدبّر؟

لا شكَّ أنَّ لكلٍّ منهما صفتَه اللازمةَ للتَّدبّرِ.

فأمّا **السَّماعُ** فأثرُه عظيمٌ في تحصيلِ التَّدبّرِ؛ قالَ النبيُّ ﷺ عن القرآنِ: ((إنّي أُحبُّ أن أسمعَه من غيري))[3]، وأمرَ الله المؤمنين بكمالِ الاستماعِ للقرآنِ؛ لا بالسَّماعِ ولا الاستماعِ فقط، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤]، وهذا النَّوعُ من السَّماعِ هو الذي يحصلُ به التَّدبّرُ، ويتضمَّنُ: **القَصدَ إلى السَّماعِ (الاستماعُ)، والتَّفكُّرَ في المسموعِ دون غيرِه (الإنصاتُ).**

(١) مجموع الفتاوى ٣/٣٣٠ .

(٢) العقيدة الواسطية (ص:٧٤).

(٣) أخرجَه البخاري في صحيحه ٦/٤٥ (٤٥٨٣)، ومسلم في صحيحه ١/٥٥١ (٨٠٠).

قالَ القُرطبي(ت:٦٧١) مُبيّناً اتِّصالَ القرآنَ الكريمَ بـ (الاستماعِ): ((حسنُ الاستماعِ كما يجبُ قد مدحَ الله عليه فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾[الزُّمَر:١٨]، فمدحَ المُنصتَ لاستماعِ كلامِه مع حضورِ العقلِ، وأمرَ عبادَه بذلك أدباً لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤]، وقال ها هنا: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[طه:١٣]؛ لأنَّ بذلك يُنالُ الفهمُ عن الله تعالى))[1].

أمّا ما عدا ذلك من أنواعِ سماعِ الناسِ فأبعدُ ما تكونُ عن التَّدبّرِ؛ كمَن يَسمعُ ولا يَسمعُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[الفرقان:٧٣]، قالَ ابنُ عَونٍ: سألتُ الشَّعبيَّ قلتُ: الرَّجلُ يَرى القومَ سجودًا ولم يَسْمعْ ما سجدوا، أيسجُدُ معهم؟ قالَ: فتلا هذه الآيةَ. قالَ ابنُ كثيرٍ(ت:٧٤٧): ((يعني أنَّه لا يسجدُ معهم، لأنَّه لم يتدبَّرْ أمرَ السُّجودِ، ولا ينبغي للمؤمنِ أن يكونَ إمَّعةً، بل يكونُ على بصيرةٍ من أمرِه، ويقينٍ واضحٍ بيِّنٍ))[2].

وأمّا **القراءةُ** فقد جاءَت في القرآنِ بثلاثةِ ألفاظٍ تتضمَّنُ ثلاثَ صفاتٍ؛ وهي:

١: **القراءةُ**: قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل:٩٨]، وقالَ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[الإسراء:١٠٦]، وفي الحديثِ: ((اقرأوا القرآنَ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعاً لأصحابِه))[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧٦/١١.

(٢) تفسيره ١٣٢/٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٥٥٣/١ (٢٥٢).

وصِفتُها: لفظُ حروفِ القرآنِ الكريمِ مجموعةً على لسانِ القارئ[١]. فهذا القَدرُ من أداءِ ألفاظِ القرآنِ الكريمِ يُسمّى: قراءةً.

٢: التِّلاوةُ: قالَ تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾[الكهف:٢٧]، وقالَ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[الأحزاب:٣٤]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[فاطر:٢٩]، وقالَ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾[الزُّمَر:٧١].

والتِّلاوةُ «أخصُّ من القراءةِ؛ فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةٌ»[٢]، فتزيدُ التِّلاوةُ على القراءةِ معنى: المُتابعةِ[٣]. فالتّالي للقرآنِ يُتبعُ بعضَه بعضاً قراءةً وعملاً، فهي قراءةٌ يَتبعُها عملٌ، ولا يكونُ ذلك إلا بالتَّدبّرِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[البقرة:١٢١]؛ أي: يتَّبعونَه حقَّ اتِّباعِه. بإجماعِ أهلِ التَّأويلِ[٤]، وهذا من أثرِ التَّدبّرِ ولازمِه، قالَ ابنُ تيمية(ت:٧٢٨): «تلاوةُ القرآنِ تجمعُ معنى التَّدبّرِ والاتِّباعِ، ومعنى السَّماعِ»[٥].

٣: التَّرتيلُ: قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[الفرقان:٣٢]، وقالَ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[المزَّمل:٤]، وقالَ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[الإسراء:١٠٦].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة ٢٢٧/٥، ولسان العرب ١٢٨/١، والكليات (ص:٧٠٣).

(٢) المفردات (ص:١٦٨).

(٣) ينظر: مقاييس اللغة ٣٥١/١، ولسان العرب ١٠٢/١٤.

(٤) جامع البيان ٤٩٢/٢.

(٥) جامع المسائل ٣٨/٨.

ويزيدُ التَّرتيلُ على القراءةِ معنى: الترسُّلِ والمُكثِ والتبيينِ[١]، قال ابنُ عباسٍ في قولِه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[المزَّمل:٤]: «بيِّنه بياناً»[٢]، وقالَ مجاهد(ت:١٠٤): «ترسَّلْ فيه ترسُّلاً، بعضُه على إثرِ بعضٍ، على تُؤَدةٍ»[٣]، وقالَ ابنُ جريرٍ(ت:٣١٠): «التَّرتيلُ في القراءةِ: التَّرسُّلُ والتَّثبُّتُ»[٤].

والذي **يتحقَّقُ به التَّدبّرِ** من تلك المراتبِ:

التَّرتيلُ أوَّلاً، ثُمَّ التِّلاوةُ، دون مجرَّدِ القراءةِ. قالَ ابنُ عطيّةَ(ت:٥٤٢) في قولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص:٢٩]: «وظاهرُ هذه الآيةِ يقتضي أنَّ التَّدبُّرَ من أسبابِ إنزالِ القرآنِ، فالتَّرتيلُ إذاً أفضلُ لهذا؛ إذ التَّدبّرُ لا يكونُ إلا مع التَّرتيلِ»[٥]، وقالَ ابنُ الجَزَريّ(ت:٨٣٣): «التَّرتيلُ يكونُ للتَّدبّرِ والتَّفكّرِ والاستنباطِ»[٦]، وقد ذمَّ الله مَن لا يعلمُ من الكتابِ إلا قراءتَه، فقالَ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة:٧٨]، قالَ ابنُ تيمية(ت:٧٢٨) : «ذمَّ الله الذين لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيَّ؛ وهو مُتناولٌ لمن تركَ تدبُّرَ القرآنِ، ولم يَعلمْ إلا مُجرَّدَ تلاوةِ حروفِه»[٧].

---

(١) ينظر: الصَّحاح ١٧٠٤/٤، وتهذيب اللغة ١٩١/١٤، ولسان العرب ٢٦٥/١١.
(٢) جامع البيان ٣٦٤/٢٣.
(٣) جامع البيان ٣٦٣/٢٣.
(٤) جامع البيان ٤٤٦/١٧.
(٥) المحرر الوجيز ٤٥٣/١٢.
(٦) التمهيد في علم التجويد (ص:٤٩).
(٧) دَرءُ تعارض العقل والنقل ٧٧/١. وينظر: مجموع الفتاوى ٣٠٥/١٣.

ومع كونِ التَّدبّرِ من أجلِّ مقاصدِ إنزالِ القرآنِ، إلا أنَّ أكثرَ قراءةِ النّاسِ لغيرِ التَّدبّرِ؛ ولو كانَت لمقاصدَ محمودةً.

ثُمَّ من قصدَ التَّدبّرَ منهم يغفلُ عن وسيلتِه التي يتحقَّقُ بها في بابِ قراءةِ القرآن: وهي التَّرتيلُ، أو التِّلاوةُ، فتراه مُكثراً من قراءةِ القرآنِ بلا تفهُّمٍ أو تدبّرٍ، وهذا اشتغالٌ بالأدنى عن الأعلى، قالَ ابنُ تيمية(ت:٧٢٨): «تعلُّمُه لما يَفهمُه من معاني القرآنِ أفضلُ من تلاوةِ ما لا يَفهمُ معانيه»[١]، **وهذا ممّا لا ينبغي أن يُختلفَ فيه**؛ قالَ ابنُ القيّم(ت:٧٥١): «لو علمَ النّاسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتَّدبّرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيةٍ وهو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبِه كرَّرَها ولو مئةَ مرَّةٍ، ولو ليلةً؛ **فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءةِ خَتمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وتفهُّمٍ**، وأنفعُ للقلبِ، وأَدعى إلى حصولِ الإيمانِ، وذَوقِ حلاوةِ القرآنِ، وهذه كانَت عادةُ السَّلفِ؛ يُردِّدُ أحدُهم الآيةَ إلى الصَّباحِ، وقد ثبتَ عن النَّبي ﷺ أنَّه قامَ بآيةٍ يُردِّدُها حتى الصَّباح، وهي قولُه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨][٢]..، ولهذا قالَ ابنُ مسعودٍ: لا تهذّوا القرآنَ هذَّ الشِّعرِ، ولا تَنثُروه نثرَ الدَّقلِ، وقِفوا عند عجائبِه، وحرِّكوا به القلوبَ، لا يكُنْ هَمُّ أحدِكم آخرَ السّورةِ. وروى أبو أيّوبَ، عن أبي جمرةَ قالَ: قلتُ لابنِ عبّاسٍ: إنّي سريعُ القراءةِ؛ إنّي أقرأُ القرآنَ في ثلاثٍ. قالَ: لأن أقرأَ سورةً من القرآنِ في ليلةٍ فأتدبَّرَها وأُرتِّلَها = أحبَّ إليَّ من أن أقرأَ القرآنَ كما تَقرأ»[٣]، وقالَ ابنُ الجَزَريّ(ت:٨٣٣) في المقارنةِ بين التَّرتيلِ

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/٥٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٥/٢٥٦ (٢١٣٢٨)، والترمذي في جامعه ٢/٣١٠ (٤٤٨)، والنسائي في سننه ٢/١٧٧ (١٠١٠)، وإسناده صحيح.

(٣) مفتاح دار السعادة (ص:١٨٧).

والقراءةِ: «الصَّحيحُ بل الصَّوابُ ما عليه مُعظمُ السَّلفِ والخَلفِ؛ وهو أنَّ التَّرتيلَ والتَّدبّرَ مع قلَّةِ القراءةِ أفضلُ من السُّرعةِ مع كثرتِها؛ لأنَّ المقصودَ من القرآنِ فهمُه، والتَّفقُّه فيه، والعملُ به، وتلاوتُه وحفظُه وسيلةٌ إلى معانيه، وقد جاءَ ذلك منصوصاً عن ابنِ مسعودٍ، وابنِ عباسٍ ﷺ، وسُئلَ مجاهدُ عن رجلين قرأَ أحدُهما البقرةَ، والآخرُ البقرةَ وآلَ عمرانَ في الصَّلاةِ، وركوعُهما وسجودُهما واحدٌ. فقالَ: الذي قرأَ البقرةَ وحدَها أفضلُ. ولذلك كانَ كثيرٌ من السَّلفِ يُردِّدُ الآيةَ الواحدةَ إلى الصَّباحِ، كما فعلَ النبيُّ ﷺ، وقالَ بعضُهم: نزلَ القرآنُ ليُعملَ به، فاتَّخذوا تلاوتَه عملاً. ورُوِّينا عن محمد بن كعب القُرَظيّ -رحمة الله عليه- أنَّه كانَ يقولُ: لأَنْ أقرأَ في ليلَتِي حتى أُصبِحَ: "إذا زُلزلَت الأرضُ"، و"القارعةُ" لا أزيدُ عليهما وأتردَّدُ فيهما، وأتفكّرُ، أحبَّ إليَّ من أن أهذَّ القرآنَ هذّاً، أو قالَ: أنثرَه نثراً»[١].

وليس في القَولِ بأنَّ كلَّ مقاصدِ تلاوةِ القرآنِ وسماعِه دونَ التَّدبّر = مِن بأسٍ؛ لأنَّ تدبُّرَ القرآنِ خيرُ مُعينٍ على تحصيلِ غيرِه من المقاصدِ؛ مِن حِفظِه، وتعليمِه، وتكثيرِ الأجرِ بقراءتِه ..، وغيرِ ذلك، لكنَّ التدبُّرَ لا يتحصَّلُ إلا لَمن قصدَه، ولا يأتي تبعاً لغيرِه من تلك المقاصدِ، فمَن تدبَّرَ حفظَ وعَملَ وعلَّمَ وأكثرَ من القِراءةِ ..، وليس العكس.

رابعاً: التفسير أوّلاً (التَّحلية):

"تحديدُ المعنى" أوَّلُ واجبٍ على المتدبّرِ؛ فهو الأساسُ لِما يُبنى عليه مِن المعاني والفوائدِ والهداياتِ، ومن أجلِّ وأقدمِ من نصَّ على ذلك ابنُ جريرٍ(ت:٣١٠) -رحمه الله- في قولِه: «وفي حثِّ الله ﷻ عبادَه على الاعتبارِ بما في آي القرآنِ من المواعظِ

(١) النَّشر في القراءات العشر ١/٢٠٨.

والتِّبيانِ؛ بقولِه جلَّ ذِكرُه لنبيّه ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[ص:٢٩]، وقولِه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[الزُّمَر:٢٧-٢٨]، وما أشبَه ذلك من آي القرآنِ، التي أمرَ الله عبادَه، وحثَّهم فيها، على الاعتبارِ بأمثالِ آي القرآنِ، والاتِّعاظِ بمواعظِه = ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةُ تأويلِ ما لم يُحجَب عنهم تأويلُه من آياتٍ؛ لأنَّه مُحالٌ أن يُقالَ لمن لا يَفهمُ ما يُقالُ له ولا يعقلُ تأويلَه: اعتبرْ بما لا فَهمَ لك به، ولا معرفةَ من القيلِ والبيانِ. إلا على معنى الأمرِ بأن يَفهمَه ويَفقهَه، ثمَّ يتدبَّره ويعتبرَ به. فأمّا قبل ذلك، **فمُستحيلٌ أمرُه بتدبُّرِه وهو بمعناه جاهلٌ**، كما مُحالٌ أن يُقالَ لبعضِ أصنافِ الأُممِ الذين لا يَعقلون كلامَ العربِ ولا يَفهمونَه، لو أَنشَدتَ قصيدةَ شعرٍ من أشعارِ بعضِ العربِ؛ ذاتِ أمثالٍ ومواعظَ وحِكمٍ: اعتبرْ بما فيها من الأمثالِ، وادَّكرْ بما فيها من المواعظِ. إلا بمعنى الأمرِ لها بفهمِ كلامِ العربِ ومعرفتِه، ثمَّ الاعتبارِ بما نبَّهَه عليه ما فيها من الحِكمِ، فأمّا وهي جاهلةٌ بمعاني ما فيها من الكلامِ والمنطقِ؛ فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوَتْه من الأمثالِ والعِبرِ. بل سواءٌ أمرُها بذلك وأمرُ بعضِ البهائمِ به، إلا بعد العلمِ بمعاني المنطقِ والبيانِ الذي فيها»[1].

فأفادَ النّصُّ: أنَّ **أمرَ الله عبادَه بتدبُّرِ القرآنِ والاعتبارِ بما فيه = هو أمرٌ لهم -بطريقِ اللّزومِ- بفهمِ معانيه ومعرفةِ تأويلِه**؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى التَّدبُّرِ والاعتبارِ إلا بفهمِ معاني المنطقِ والبيانِ.

ويتقرّرُ من ذلك أصولٌ مهمّةٌ في بابِ التَّدبّرِ:

أوَّلُها: لا تدبُّرَ بلا تفسيرٍ، وفهمُ المعنى المُرادِ (التَّفسيرَ) سابقٌ للتدبّرِ.

(١) جامع البيان ١/ ٧٦.

ثانيها: أنَّ قوَّةَ العلمِ بمعنى الآيةِ (التَّفسيرِ) يورثُ قوّةً ويقيناً فيما يُستفادُ منها بالتّدبُّرِ، ولذلك كانَ أهلُ التَّفسيرِ أحسنُ النّاسِ تدبُّراً، وهذه ميزةٌ لهذا العلمِ ليسَت لغيرِه من العلومِ.

ثالثها: أنَّ أيَّ تدبُّرٍ أورثَ إضراراً بمعنى الآيةِ المُرادِ (التَّفسيرِ) = فهو مردودٌ باطلٌ؛ لأنَّ التَّفسيرَ هو الأصلُ، والمعاني المُتدبَّرَةَ منه شواهدُ على صحَّةِ ذلك الأصلِ وثبوتِه، ولا يصحُّ أن يأتيَ الشّاهدُ بما يُناقضُ معنى الأصلِ أو يُخالفُه. كما أنَّ حمايةَ معنى الآيةِ المُرادِ منها (تفسيرَها)، أولى من حمايةِ فهمٍ تدبَّرَه كائناً مَن كانَ منها.

وممّا يُخشى منه في واقعِ حالِ جمهرَةٍ من المُتدبّرين: عدمُ الالتفاتِ إلى معنى الآيةِ الصَّحيحِ قبل تدبُّرِها، فيقعُ التَّدبّرُ منهم على معانٍ مظنونةٍ أو خاطئةٍ، وهذا أخطرُ ما يقعُ فيه من يرومُ تدبُّرَ القرآنِ، وفي ذلك من المحاذيرِ: القولُ على الله بغيرِ علمٍ، ونسبةُ ظنونٍ وأوهامٍ إلى كتابِ الله تعالى باسمِ التَّدبّرِ.

خامساً: البناءُ (تثويرُ القرآنِ):

بعد تثبيتِ معنى الآيةِ تفسيراً، يأتي البناءُ عليه تدبُّراً، وأجلُّ عبارةٍ تصفُ مرحلةَ بناءِ المعاني في التَّدبّرِ؛ قولُ ابنِ مسعود رضي الله عنه: «من أردَ العلمَ **فليُثوّرْ القرآنَ**»[1]، قالَ ابنُ الأثيرِ(ت:٦٠٦): «أي: ليُنَقِّرْ عنه، ويُفكّرْ في معانيه وتفسيرِه»[2]، وهذه العبارةُ الموجزةُ **وصفٌ دقيقٌ لفعلِ التَّدبّرِ وحقيقتِه**؛ وذلك بـ: إثارةِ المعنى، والتَّنقيرِ عنه، والتَّفكّرِ فيه من كلِّ وجهٍ؛ إفراداً في نفسِه، وإجمالاً في سياقِه، وبدايةً في وجودِه، ونهايةً فيما يؤولُ إليه، ونَظماً في لفظِه وتركيبِه وأسلوبِه، وترتيباً في سياقِه وزمنِ نزولِه وسببِه، ومناسبةً في

(١) تفسير سعيد بن منصور ١/٧، وإسناده صحيح.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٢٢٩.

موضِعِه من الآيةِ والسورةِ ومجموعِ السّورِ، ومفهوماً من لفظِه، وشبيهاً بمعناه، وموافقاً له في قصدِه وغايتِه، وتنزيلاً على الوقائعِ، وربطاً بأحداثِ الحياةِ ..، ونحوِ ذلك ممّا يصدقُ عليه وصفُ (التَّثويرِ) بلا قيدٍ، مع تكرارِ نَظرِه في ذلك مرَّةً بعد مرَّةٍ.

وذلك **الثَّراءُ في مآخذِ التَّدبّرِ** هو من طبيعةِ التَّدبّرِ وحقيقتِه لغةً وشرعاً؛ فهو لغةً "تفكّرٌ في مبدأِ الأمرِ وآخرِه" كما مرَّ، قالَ ابنُ القيّم(ت:٧٥١): «وتدبُّرُ الكلامِ: أن يَنظرَ في أوَّلِه وآخرِه، ثمَّ يُعيدُ نظرَه مرّةً بعد مرّةٍ، ولهذا جاءَ على بناءِ "التَّفعُّلِ" كالتفهُّم، والتبيُّن»[١].

وجاءَ الأمرُ به عامّاً مُطلقاً في جميعِ مواضعَ ورودِه في القرآنِ، **وذلك العمومُ يشملُ: أنواعَ المُتدبّرين، وطرائقَ التَّدبّرِ، ومواضعَ التّدبّرِ.**

فأمّا **أنواعُ المُتدبّرين**؛ فقد خاطبَ الله به المشركين في قولِه: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[المؤمنون: ٦٨][٢]، وخاطبَ به المنافقين في قولِه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[النساء: ٨٢]، وقولِه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾[محمد: ٢٤][٣]، وخاطبَ به المؤمنين في قولِه: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ}[ص: ٢٩] ، في قراءةِ أبي جعفرَ: بالتّاءِ على الخطابِ[٤]، وخاطبَ جميعَهم في قراءةِ الجمهورِ بالياء على الغَيْبةِ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٩][٥].

(١) مفتاح دار السعادة ١/١٨٣.
(٢) ينظر : التفسير الكبير ٢٣/٩٦ ، وتيسير الكريم الرحمن ٢/١٣٠ .
(٣) ينظر : التفسير الكبير ١٠/١٥٦ ، و٢٨/٥٦ ، والتحرير والتنوير ٥/١٣٧، و ٢٦/١١٤ .
(٤) ينظر : جامع البيان ٢٠/٧٩ ، والبحر المحيط ٧/٣٧٩ .
(٥) ينظر : المحرر الوجيز ٤/٥٠٣ ، والتفسير الكبير ٢٦/١٧٧ .

وأمّا **طرائقُ التَّدبّرِ**؛ فكلُّ طريقةٍ علميَّةٍ أو عقليَّةٍ توصلُك إلى فائدةٍ متَّصلةٍ بالآيةِ، كما في مآخذِ التَّدبّرِ السّابقةِ الذِّكر. **وأجلُّ أدواتِ التَّدبّرِ في المعاني** ثلاثةٌ:

١- **القياسُ على المعنى.**

٢- **دلالاتُ الألفاظِ** (العمومُ والخصوصُ، والُمجملُ والُمبيّنُ، والَمفهومُ والمنطوقُ).

وهاذان من أبوابِ علمِ "أصولِ الفقه".

٣- **خصائصُ التَّراكيبِ.**

وهذا من أبوابِ علمِ "البلاغةِ".

فمن أحسنَ هذه الأبوابَ الثَّلاثةَ فهماً وتطبيقاً = حارَ من كثرةِ ما تُثمِرُه من المعاني.

وأمّا **مواضعُ التّدبّرِ**؛ فالقرآنُ كُلُّه؛ كما هو ظاهرٌ من الآياتِ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾، قالَ ابنُ تيميّة(ت:٧٢٨): «فحَضَّ على تدبُّره –أي القرآنِ– وفِقهِه وعَقلِه والتَّذكّرِ به والتَّفكّرِ فيه، ولم يستثنِ من ذلك شيئاً ..، ومعلومٌ أنَّ نفيَ الاختلافِ عنه لا يكونُ إلا بتدبُّرِه كُلِّه، وإلاّ فتدبُّرُ بعضِه لا يوجِبُ الحكمَ بنفي مُخالفَةِ ما لم يُتدَبَّر لما تُدُبِّر»[(١)].

سادساً: حمايةُ المعنى المستفاد:

من تمامِ بناءِ المعاني وتثويرِها بالتَّدبّرِ: **حمايةُ تلك المعاني؛ بوَصلِها بأصلٍ صحيحٍ يُبنى عليه**: كالسُّنّةِ، وأقوالِ السَّلفِ، والقراءاتِ، واللغةِ، والنّظائرِ، والسّياقِ ..، ونحوِها ممّا تستندُ إليه المعاني في التَّفسيرِ، فتقويةُ المعاني الُمستفادةِ بنحوِ تلك الُمستنداتِ يزيدُها ثباتاً وتأثيراً.

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٣٠٧ .

كما تتعيّنُ حمايةُ تلك المعاني من جهةِ سلامتِها في نفسِها، واطِّرادِها وعدمِ انتقاضِها، وذلك ممّا وجَّه إليه قولُه تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢]، فالمعاني المُخالفةُ للشَّرعِ أو الواقعِ مردودةٌ؛ لما فيها من الاختلافِ والتّناقضِ، بخلافِ المعاني المُستفادةِ بتدبّرٍ صحيحٍ، فإنَّها تنفي الاختلافَ عن القرآنِ من كلِّ وجه.

سابعاً: الأَولى من المعاني:

لا حدَّ لما يُستفادُ بالتَّدبّرِ من المعاني؛ لأنَّها بعددِ عقولِ النّاسِ وعلومِهم، فاخترْ من المعاني أَولاها بصلاحِك، وابنِ يقينَك بتدبُّرِك بنفسِك، واسَتخرِج من مفاهيمِ القرآنِ منهاجَ حياتِك، قالَ ابنُ القيّم(ت:٧٥١) مبيِّناً أثرَ التَّدبّرِ في تحقيقِ ذلك: «لا شيءَ أنفعَ للقلبِ من قراءةِ القرآنِ بالتَّدبّرِ والتَّفكّرِ؛ فإنَّه جامعٌ لجميعِ منازلِ السّائرين، وأحوالِ العاملين، ومقاماتِ العارفين، وهو الذي يورثُ المحبَّةَ والشَّوقَ والخوفَ والرّجاءَ والإنابةَ والتَّوكلَ والرِّضا والتَّفويضَ والشُّكرَ والصَّبرَ، وسائرَ الأحوالِ التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعالِ المذمومةِ، والتي بها فسادُ القلبِ وهلاكِه، **فلو علمَ النّاسُ ما في قراءةِ القرآنِ بالتَّدبّرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها ..، فقراءةُ القرآنِ بالتَّفكّرِ هي أصلُ صلاحِ القلبِ**؛ ولهذا قالَ ابنُ مسعودٍ: لا تهذّوا القرآنَ هذَّ الشِّعرِ، ولا تَنثُروه نثرَ الدَّقلِ، وقِفوا عند عجائبِه، وحرِّكوا به القلوبَ، لا يكُنْ هَمُّ أحدِكم آخرَ السّورةِ»[(١)].

ومن خيرِ ما يُعينُ على اكتسابِ تلك العادةِ في التَّدبّرِ: **إنزالُ النَّفسِ منزلةَ من نزلَ**

(١) مفتاح دار السعادة (ص:١٨٧).

عليه القرآنُ وخُوطِبَ به. فإنَّه لا شيءَ أصرفَ للقلبِ عن التَّدبّرِ من الانعزالِ الشُّعوريِّ عن خطابِ القرآنِ، قال ابنُ القيّمِ(ت:٧٥١) مُنبِّهاً على ذلك: «ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يشعرون بدخولِ الواقعِ تحتَه –أي القرآنِ–، وتضَمُّنِه له، ويظنّونَه في نوعٍ وفي قومٍ قد خَلَوا من قبلُ ولم يُعَقِّبوا وارِثاً، وهذا هو الذي يحولُ بين القلبِ وبين فهمِ القرآنِ»(١).



(١) مدارج السالكين ١/٣٤٣ .

أمثلةٌ تطبيقيّةٌ

هذه أمثلةٌ تطبيقيَّةٌ لبعضِ تدبُّراتِ السَّلفِ والعلماءِ، تتبيّنُ فيها مراحلَ فعلِ التَّدبّرِ التي سبقَ بيانُها:

م	الآيةُ	التَّفسير	التَّدبُّر	
		المعنى المُراد	طريقةُ التدبُّر (أدواتُه)	المعنى المستفاد (نتيجةُ التدبُّر)
١	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢]	عاقبَ الله من عبدوا العجلَ من اليهودِ بأن غضبَ عليهم وأذلَّهم في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك يجزي الله كلَّ مفترٍ في دينِه غيرَ ما شرعَ الله.	**تعميمُ المعنى:** عاقبَ الله مَن عبدوا العجلَ بالذِّلَّةِ، وكذلك يجزي الله كلَّ مفترٍ في دينِه، والبدعةُ افتراءٌ في الدينِ، فالنَّتيجةُ إذاً:	قولُ ابنِ عُيينة: **كلُّ ذي بدعةٍ ذليلٌ.**
٢	﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس:٣٩]	سارعَ المُشركون إلى التَّكذيبِ بما لم يفهموه ولم يعلموا حقيقتَه.	**القياسُ على المعنى:** كذَّبوا لَمّا لم يعلموا. ويشبهُه في المعنى ويوافقُه في الغايةِ:	قولُ الحسين بن الفضلِ لَمّا قيلَ له: أتجدُ في كتابِ الله: **من جهلَ شيئاً عاداه**؟ قالَ نعم، ثمَّ تلا الآية.
٣	﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا	قالَ أشرافُ قومِ نوحٍ لقومِهم: ما نوح إلا	**الإلزامُ العقليّ:** لم يرضَ المشركون	قالَ الزمخشري: **ما أعجب شأنَ**

	﴿بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [المؤمنون:٢٤]	بشرٌ مثلُكم وكبعضِكم.	النبوّةَ لبشرٍ، لكنّهم جعلوا الأحجارَ آلهةً، وهذا تناقُضٌ عجيبٌ:	**الضُّلّال؛ لم يَرضَوا للنبوّةِ ببشر، ورَضوا للإلاهيَّةِ بحجر!**
٤	﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء:١١]	يعهدُ الله إليكم في أولادِكم ذكوراً وإناثاً، ويُحرِّصُكم في حقِّهم.	**دلالةُ الواقعِ المشاهد:** لا أحرصَ على الأولادِ من والدِيهم؛ ولذلك لا يوصَى الأبُ بابنِه، بل العكسُ، فلمّا أوصى الله الوالدَين بأولادِهم دلَّ ذلك على:	قولِ السُّهيلي: **الله أرحمُ بالأولادِ من والدِيهم.** ويشهدُ له قولُه: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤]، والوالدان من الرّاحمين، والله أرحمُ منهم.
٥	﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:١٨]	ادَّعى اليهودُ والنّصارى أنَّهم أبناءُ الله وأحبّاؤُه، فأكذبَهم الله تعالى بأنَّه عذَّبَهم بذنوبِهم.	**دلالة المفهوم:** أبطلَ الله دعوى اليهود والنّصارى أنّهم "أحبّاءُ الله" بأنّه تعالى عذّبَهم بذنوبهم، ومفهوم المخالفةِ من ذلك: أنّه لو أحبّهم لما عذَّبَهم.	قال ابنُ جرير: **الحبيبُ لا يعذِّبُ حبيبَه.** وذكرَها ابنُ كثير عن بعضِ الشّيوخِ واستحسنَها.
٦	﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ	ما كانَ الله ليعذبَ المشركين وأنت يا	**دلالة التّراكيب:** صيغةُ الاسم تفيدُ	**جاء في الأولى بالفعل:** ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ لأنّ بقاء

	﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]	محمّدُ مُقيمٌ بين أظهرِهم، وما كانَ الله معذبَهم وفيهم المؤمنون يستغفرون. أو: وفيهم من سيكونُ من المؤمنين المستغفرين.	الثبات والدّوام، وصيغةُ الفعلِ تفيدُ الحدوثَ والتّجدّد، ولذا:	الرسول بينهم مانعٌ **مؤقّتٌ** من العذابِ يزولُ بزوالِه. **وجاء في الثانية بالاسم: ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾** لأنّ الاستغفارَ مع الإيمانِ مانعٌ **ثابتٌ** من العذابِ في كلِّ زمان.
٧	﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:٨٢]	قالَ الخضرُ لموسى إنّ الجدارَ الذي أصلحَه كان لغلامَين يتيمَين في المدينةِ، وتحته كنزٌ لهما من مالٍ أو علمٍ، وكانَ أبوهما صالحاً فحفظَه الله لهما بصلاحِ أبيهما.	**دلالةُ التّراكيبِ:** جاء قولُه تعالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ في سياقِ التَّعليلِ بالوَصفِ، فالخَضرُ فعلَ تلك الخدمةَ من إقامةِ الجدارِ وإصلاحِه لاتِّصافِ والدِهم بالصَّلاحِ، ومن ثَمَّ:	قال ابنُ سعديّ: **خدمةُ الصّالحين أو مَن تعلَّقَ بهم أفضلُ من غيرِهم؛** لأنّه علَّلَ استخراجَ كنزِهما وإقامةِ جدارِهما بأنَّ أباهما "صالحٌ".
٨	﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا	قالوا لذي القرنين: إنَّ يأجوجَ ومأجوج مفسدون في الأرضِ؛ فهل نجعلُ	**القياسُ على المعنى:** طلبوا من ذي القرنين أن يبني سدّاً يمنعُ عنهم يأجوجَ	ما ذكرَه القرطبيُّ من **جوازِ اتِّخاذِ السّجونِ، وحبسِ أهلِ الفسادِ فيها، ومنعِهم من**

	﴿وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]	لك عطاءً على أن تجعلَ بيننا وبينهم حاجزاً يمنعُنا من إفسادِهم.	ومأجوجَ؛ لفسادِهم، فاستنبط العلماءُ من ذلك:	**التَّصرّف لما يريدونه من الشّرّ**، حتى ينكفَّ شرُّهم. ويَسنُدُ ذلك فعلُ عمر رضي الله عنه.
٩	﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥]	ما الأمرُ كما يقولُ هؤلاء المكذّبون؛ أنَّ لهم عند الله زُلفةً، بل هم يومَ القيامةِ عن ربِّهم محجوبون؛ فلا يرونَه، ولا يرونَ شيئاً مِن كرامتِه يصلُ إليهم.	**دلالة المفهوم:** حجبَ الله المجرمين المكذبين عن رؤيتِه عقوبةً لهم، فمفهوم ذلك:	قولُ الشّافعي: **لّما حجبَ الله قوماً بالسَّخطِ عليهم، دلَّ على أنَّ قوماً يرونَه بالرضا عنهم.** ويشهدُ له قولُه تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]

ويستفادُ من هذه الأمثلةِ أمورٌ:

أوّلها: أنَّ صحَّةَ تَفسيرِ الآيةِ شرطٌ لصحّةِ ما يُتدبَّرُ منها.

ثانيها: أنَّ أدواتَ التَّدبّرِ كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ، وبعضُ المعاني التَّدبّريّةِ يُمكنُ أن يتركَّبَ من أكثرَ من أداةٍ لاستخراجِ معناه المُستفاد.

ثالثها: تضمَّنَت بعضُ الأمثلةِ شواهدَ تسنُدُ المعاني المُستفادةِ بالتَّدبّرِ؛ كما في المثالِ الرّابعِ والثّامنِ والتّاسعِ، وتلك عادةُ العلماءِ لتقويةِ تلك المعاني، وزيادةِ اليقينِ بها.

وصلّى الله وسلّمَ وباركَ على نبيِّنا محمّدٍ وآلِه وصحبِه.



*** مسرَد المراجع :**

١ – أحكام القرآن ، لابن العربي ، ت/ عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ط١ ، ١٤٢١ .

٢ – الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ١، ١٤١٥.

٣– البحر المحيط ، لأبي حيّان الأندلسي ، دار الكتب العلمية ط١ ، ١٤٢٢ .

٤ – تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، ت: مجموعة من المحققين، ط: دار الهداية.

٥ – التحرير والتنوير ، للطاهر ابن عاشور ، نشر الدار التونسية .

٦– تفسير آياتٍ أشكلَت على كثير من العلماء، لابن تيمية، ت: عبد العزيز بن محمد الخليفة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٧.

٧– التفسير البسيط، للواحدي، ت: مجموعة من المحققين، ط: عمادة البحث العلمي، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط: ١، ١٤٣٠.

٨– تفسير سعيد بن منصور، ت: د. سعد بن عبد الله آل حميد، ط: دار الصميعي، ط: ١، ١٤١٧.

٩– تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، ط: دار طيبة، ط: ٢، ١٤٢٠.

١٠ – التفسير الكبير ، لفخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ط١ ، ١٤٢١ .

١١ – التمهيد في علم التجويد، لابن الجزري، ت: د. علي البواب، ط: مكتبة المعارف، ط: ١، ١٤٠٥.

١٢ – تهذيب اللغة، للأزهري، ت: محمد مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ١، ٢٠٠١م.

١٣– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، ت: محمد النجار، مؤسسة الرسالة ط١، ١٤١٥.

١٤ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، ت: عبد الله التركي، دار هجر ط١، ١٤٢٢.

١٥ – الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، ت/ عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ط٤، ١٤٢٢.

١٦ – جامع المسائل، لابن تيمية، ت: محمد عزير شمس، ط: دار عالم الفوائد، ط: ١ ، ١٤٢٢.

١٧ – درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، ١٣٩١.

١٨ – ديوان المثقّب العَبدي، ت: حسن كامل الصيرفي، ط: معهد المخطوطات العربية، ط١، ١٣٩١.

١٩ – الصَّحاح ، للجوهري ، ت/ أحمد عبد الغفور عطَّار ، دار العلم للملايين ط٤ ، ١٤١٠ .

٢٠ – صحيح البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط: دار طوق النجاة، ط: ١، ١٤٢٢.

٢١ – صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢- العقيدة الواسطية، لابن تيمية، ت: أشرف بن عبد المقصود، ط: أضواء السلف، ط: ٢، ١٤٢٠.

٢٣- غريب الحديث، للحربي، ت: د. سليمان العايد، ط: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط: ١، ١٤٠٥.

٢٤- غريب الحديث، لابن قتيبة، ت: د. عبد الله الجبوري، ط: مطبعة العاني، بغداد، ط: ١، ١٣٩٧.

٢٥- الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨.

٢٦- الكشاف، للزمخشري، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ٣، ١٤٠٧.

٢٧- الكليات، للكفوي، ت: عدنان درويش، ومحمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٨- اللباب في علل البناء والإعراب، للعكبري، ت: د. عبد الإله النبهان، ط: دار الفكر، دمشق، ط: ١، ١٤١٦.

٢٩- لسان العرب، لابن منظور، دار عالم الكتب، ١٤٢٤، مصورة عن الطبعة الأميرية سنة ١٣٠٠.

٣٠- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ت/ عبد الرحمن بن قاسم، ١٤١٨.

٣١- المحرر الوجيز، لابن عطية، ت: عبد العال السيد إبراهيم، ط: قطر، ط١، ١٣٩٨.

٣٢- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، ت: عبد الحميد هنداوي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٢١.

٣٣- مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ت: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، ١٣٩٢.

٣٤- معاني القرآن، للنحاس، ت: محمد علي الصابوني، مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٨.

٣٥- مفتاح دار السعادة، لابن القيّم، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ت: صفوان داوودي، دار القلم، ط٣، ١٤٢٣.

٣٧- مقاييس اللغة، لابن فارس، ت: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، ١٣٩٩.

٣٨- النَّشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ت: علي محمد الضباع، ط: المطبعة التجارية الكبرى - تصوير دار الكتاب العلمية-.

٣٩- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، ط: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩.

